

النجاة قصته

يقلم اлександр لوقا

كان الشاب واثقا من ان البحر طوى الباخرة منذ فترة ، ولم يعد يرى سوى اجنحة الطيور التي تلامس وجه الماء صاعدة هابطة عليه . وبرغم ذلك بقيت عيننا الرجل العجوز معلقين بعيدا ، عند نقطة التقاء البحر بالسماء . ثم تمت بصوت مسموع صلاة قصيرة ورسم علامة الصليب .

«خيّل اليّ في البدء ان الامنيات التي رافقتني الى بلاد الغربة ، ستنقلب خلال شهور قليلة الى واقع ملموس بين اناملي : ثورة استطيع ان اصنع بها المستحيل . وحدث ما توقعت ، لكنني لم احتمل سماع رنين القطع الذهبية في جيبي . كانت القطع الذهبية تشدني الى ذكريات طفولتي المحرومة ، فالقيت بنفسي في غمار التجارب حتى تلوثت قدمي بوحول المستنقعات . وبدت لي غريبتني شديدا يريد ابتلاع العالم كله . ولم اقرر العودة الى وطني خائبا » .

عندئذ اقترب الشاب وهمس في اذن الرجل العجوز: هل ترغب في العودة ؟

قال الرجل العجوز بصوت رقيق : بالطبع سنعود، ولكن ليس قبل غياب الباخرة .

وامتدّ بصر الشاب نحو الافق . كانت النقطة السوداء قد ذابت في جوف الماء ، ولم يعد لها ادنى اثر . وكانت الشمس ايضا قد غاصت في الماء مخلفة وراءها الصمت . وبقيت عيننا الرجل العجوز ترصدان البحر .

«كلمات الرسالة التي جاءتني من الوطن اكساد اذكرها حرفا حرفا : منذ ان غادرت البلد ، امك لم تبرح

ابتعدت الباخرة عن الشاطئ ، وبدأت احجام الناس والمنازل تصغر وتصغر . وكانت الايدي ما تزال تلوح بالمناديل البيضاء ، ثم لا تلبث ان ترتد بها الى المآقي لتجفف ما علق بها من دمع .

على الشاطئ ، امتنع رجل عجوز عن مفارقة مكانه، ريثما تذوب النقطة السوداء في البحر . كان وجه الابن الحبيب ما يزال يطل عليه من بعيد حاملا معه دفء انفاسه على صدره وبين عينيه .

وعلى الرمال القريبة من رصيف الميناء وقف طفلان يرميان بسنارتيهما الى الماء يبحثان عن صيد .

« سيكون صيدي دسما . هكذا رددت بيني وبين نفسي قبل ان تطأ قدمي ظهري السفينة قبل عشرين عاما . لكن الصيد تجسد خيبة لم تكن على البال ، فعدت الى وطني اضع جيبي فوق ترابه واصلي .

اقترب شاب نحيل من الرجل العجوز وامسك بذراعه . لكن الرجل العجوز رفض الانصياع اليه . كانت النقطة السوداء ما تزال تسبح فوق الماء ، ولم يكرر الشاب محاولته . احترم صمت الرجل واطال فترة الانتظار الى ان يقرر هو نفسه زمن العودة .

بيد ان الرجل العجوز وقف طويلا ولم يقرر زمن العودة . لم تكن الرؤية واضحة امام العين بسبب انعكاس اشعة الشمس الفاربة ، الا انه بقي مستمرا في تأملاته .

سأله الشاب بتحفظ : هل ترى الباخرة ؟

هزّ الرجل العجوز رأسه بالايجاب .

وبالشعرات البيض التي وشحت شعر رأسي . لم انطق
بحرف وبقيت غارقا في دفء انفاسها علي صدري وبين
عيني .

ودخل الرجل العجوز الي غرفته ، وتفحص
الصورتين المعلقين على الحائط :

زوجته التي رحلت منذ سنوات . ابنه الوحيد
الذي رحل اليوم .

ثم بدأ يتنقل في ارجاء المنزل كمن يمشي في طرقات
مدينة يجهلها . تراءت له غرف المنزل او كارا مهجورة لم
يطاها قدم الانسان منذ قديم الزمان . لكنه حرص على
الصمت . وعندما سأله الشاب عن رغباته قبل مغادرة
المنزل قال : لا تنس عمك مطانيوس ، احضر دائما .

وقبل الشاب يد عمه وخرج .

في تلك الليلة لم يفلق الرجل العجوز نافذة غرفته .
بقي ساعات طويلة يستنشق هواء البحر ، وتلمس يداه
ملامح وجه يطل عليه ، بين الحين والاخر ، من وراء
النافذة .

كان الهواء في تلك الليلة شديدا وقارسا .

لكن النافذة بقيت مفتوحة على مصراعها ، ولم
تقو اليد اليابسة على اغلاقها .

**«لم اعد اشعر بثقل الوجول العالقة بقدمي» . وكلما
نظرت الى النافذة المغلقة في غرفة منزلنا المطل على
البحر ، امتلأت باحساس الفريق الذي ينجو من موت
محقق . وفي اذني دائما تتردد وصية راعي الكنيسة في
بلاد الغربة . امي او السفر . قررت ان الازم الاولى
واتخلى عن الاخر» .**

في اليوم التالي خرجت جنازة صامته من البيت
المطل على البحر . وكان الهواء ما زال شديدا وقاسيا .

اسكندر لوقا

دمشق

رحلة الحفاسي

مجموعة قصص

بقلم

محمد رؤوف بشير

صدر حديثا

٢٥٠ ق.ل

نافذة غرفتها المطلة على البحر . عيناها دائما ترصدان
حركة البواخر في الميناء . يخيل اليها انك تطفو على وجه
الماء في طريقك اليها ، بين لحظة واخرى .» .

وارتد بصر الشاب ليستقر على وجه الرجل العجوز ،
وسمعه يسأل : هل حل الظلام ام ان عيني لا تريان ؟

اجابه الشاب بهدوء : بل حل الظلام .

واضاف بلهجة مطمئنة : رافقتك السلامة . سيعود

اليها غنيا بتجاربه .

**«كانت تجاربي قد تنوعت اكثر مما رغبت . ولم
ارتد الى نفسي الا بعد ان استسلمت للشيطان وبسات
جمع الثروة هدفي الاسمى . واني لاذكر كيف وقفت بين
يدي راعي الكنيسة احده عما اقترفت فقال : لا يقدر
خادم ان يخدم سيدين الله والمال ، تلك هي وصية سيدنا
يسوع . وعندما سكت سمعت صوتا في اعماقي يقول :
غفرت خطاياك ، اذهب وصل» : لا تدخلنا في التجربة
ولكن نجنا من الشيطان ، آمين» .**

كانت النقطة السوداء ما تزال مرسومة في بؤبؤ
عينية . بل ان الرجل العجوز اكد لمرافقه انه يرى الباخرة
بحجمها الطبيعي وفوق احدى شرفاتها ولده الوحيد يردد:
انتظرنني .

ثم سال الشاب ببراعة طفل : تراني ساعيش حتى
يعود ؟

تضاحك الشاب وهو يتأبط ذراعه في طريق
عودتهما الى المنزل وقال : فيما اعلم يا عم لم ترد له طلبا .
هذا الطلب لن ترده ايضا .

هزّ الرجل العجوز برأسه وهو يتفحص مواقع
قدميه ، وزفر زفرة طويلة ولم يتكلم طول الطريق .

**«كانت الاخبار التي تصلني من الوطن تؤرقني ليل
نهار : والدك بدأ يتضجر من تصرفات امك . في البيت لا
تنقطع المناحة . صورتك لا تنزل من يدها .**

كانا متاكدين من عودتي بعد خمس سنوات على
الاقبل . لكن الاخبار حملتني على العودة الى الوطن بعد
سنتين فقط . كانت امي قد كبرت خلال هاتين السنتين
مئة عام . وعندما تلقفتني بصدرها عجزت عن شدي اليها
بنفس القوة التي ودعتني بها . نظرت اليّ طويلا كأنها
في حلم ثم قالت : كبرت يا ولدي .

وتعلقت عيناها بالاخايد المرسومة على جبينني ،